

تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة في سورية

الدكتور غسان بديع السيد
جامعة دمشق - كلية الآداب
قسم اللغة العربية

على الرغم من الإشكاليات الكثيرة التي أثارها ظهور الأدب المقارن كفرع مستقل من فروع المعرفة التي تتيح الدخول إلى مجاهل النصوص الأدبية، فإنه أثبت أهميته، وما زال يكسب مناطق نفوذ جديدة. ولا يختلف اثنان اليوم على أهمية الأدب المقارن خاصة في عصر تقلصت فيه المسافات، وأصبح من الصعب على أي أمة أن تتقوقع على ذاتها وتكتفي بما عندها من علم وأدب وثقافة وأفكار.

ومن هنا جاء الاهتمام بدراسة التأثيرات المتبادلة بين الأمم. وعلى الرغم من أن الاهتمام بهذا الموضوع ليس حديثاً فإنه قد بلغ أوجه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة لعدد من العوامل المتعلقة بالأوضاع العامة السائدة في العالم حينذاك، مثل ازدهار حركات الكشف الجغرافي والرحلات إلى مناطق نائية ومجهولة من العالم، واتساع حروب الاستعمار التي ساعدت في التعرف على حضارات وثقافات ونظم جديدة (١).

وكان طبيعياً إذن أن تنشأ هذه الدراسات في أوروبا الغربية التي كانت تحاول في كل يوم كسب مناطق نفوذ جديدة. فبدأ الحديث عن القانون المقارن، والتشريع المقارن، واللغويات المقارنة، والآداب المقارن.

وكل هذه العلوم المقارنة كانت تنطلق من مبدأ واحد هو التسليم بوجود علاقة بين الشعوب والمجتمعات التي يتم المقارنة بين نظمها وثقافتها، ثم البحث بعد ذلك عن طبيعة هذه العلاقة وأوجه التأثير المتبادل.

وما يهمننا في بحثنا هو الأدب المقارن الذي يُجْمَعُ النقَادُ على أن نشأته كانت في فرنسا عندما ألقى فرانسوانويل وبعض مساعديه محاضرات في الأدب المقارن في السوربون بين عامي ١٨١٦ — ١٨٢٥ تركزت في معظمها على الآداب الفرنسية واللاتينية والإنكليزية والاطيالية. بعد ذلك بعامين جاء من بعده النقاد رائد الأدب المقارن أبيل فيلمان الذي حاضر في جامعة السوربون صيف عام ١٨٢٧ .

ومنذ أن بدأ فيلمان محاضراته ارتسمت خطوط عامة سار عليها كثير من المقارنين الفرنسيين من أمثال فان تييرغ وفرانسواغويار وغيرهم. وأول ما يميز المدرسة الفرنسية هو أنها تعد العامل التاريخي شرطاً ضرورياً لاقامة الدراسة المقارنة. يقول فانتييرغ: «الأدب المقارن الحقيقي يحاول، ككل علم تاريخي، أن يشمل أكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الاصل، حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدة، فهو يوسع أسس المعرفة كيما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع» (٢).

ولكن هذا التعريف لم يَلْقَ الترحاب المناسب، فحاول المقارنون الفرنسيون الجدد تطوير تعريف المدرسة كما جاء في كتاب «ما الأدب المقارن» الأدب المقارن: وصف تحليلي، ومقارنة منهجية تفاضلية، وتفسير مركب لظواهر أدبية مختلفة بين اللغات، أو الثقافات، من خلال التاريخ والنقد والفلسفة، من أجل الوصول إلى فهم جيد للأدب، بوصفه وظيفة خاصة بالعقل البشري» (٣).

وإذا كان الجيل الجديد من المقارنين الفرنسيين قد اكتفى بادخال بعض التعديلات في المفهوم الفرنسي، فإن رينيه ويليك قد نسف هذا المفهوم من أساسه في المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر الرابطة الدولية للأدب المقارن الذي عقد عام ١٩٥٨، وعنوانها «ازمة الأدب المقارن». وكانت هذه المحاضرة أساس المفهوم الأمريكي في الأدب المقارن. ويقوم هذا المفهوم على أن الأدب المقارن هو العلم الذي لا يقتصر في دراسته للأدب على إنتاج دولة معينة دون غيرها من سائر دول العالم، بل يكسر الحدود الإقليمية الضيقة ويخترقها وهو العلم الذي يدرس العلاقة بين الأدب من ناحية وبين ميادين المعرفة الأخرى. باختصار، يتصدى الأدب المقارن، في المفهوم الأمريكي، للمفاضلة بين التعبير الأدبي وصور التعبير الأخرى.

هذا يعني أن المدرسة الأمريكية ترفض مبدأ الصلات التاريخية بوصفها شرطاً أساسياً للدراسة المقارنة. وبعد المدرسة الأمريكية جاءت المدرسة السلافية أو الماركسية التي تطالب بدراسة العلاقات بين الآداب انطلاقاً من وجهة نظر الماركسية التي تقول: إن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع ما يفرز نمطاً معيناً من الأدب وهو ما اصطلاح على تسميته بالبناء الفوقي. فإذا تشابهت هذه الأوضاع في مجتمعين مختلفين أو أكثر فإن البناء الفوقي «الأدب» سيتناول موضوعات متشابهة. وهذا ما يتيح لنا دراسة هذه الآداب المختلفة من باب رؤية، كيف أن مجتمعات مختلفة يجمعها الأدب تحت

ظروف اجتماعية واقتصادية متشابهة.

وبعد أن ازداد الاهتمام ببحث العلاقات بين الآداب المختلفة ونجاح هذا الفرع المعرفي الجديد في اكتساب مناطق نفوذ جديدة، بدأ العرب الاهتمام به. وعلى كل حال، العرب هم أكثر من يعرف فائدة الانفتاح الثقافي على العالم خاصة بعد مجيء الاسلام واختلاط العرب بالأمم المجاورة، وإطلاعهم على ما في ثقافتهم من قيم جديدة، كما استفادت هذه الأمم مما لدى العرب فتمازجت الثقافات إلى درجة جعل من المستحيل العودة إلى أصولها. هكذا كان حال العرب مع الفرس الذين أسهموا في الثقافة العربية الإسلامية.

يقول الدكتور أحمد أمين في «ضحى الاسلام»: «فلعلك تقرّ معي في هذا، أن الادب الفارسي صبغ الأدب العربي صبغة جديدة، وربما كان أدق من ذلك أن تقول إنهما تفاعلا» (٤).

من الخطأ إذن القول إن العرب والمسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات، وإن آراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية من غير أن تتأثر بغيرها. ولا يقلل هذا من قيمة ما تركه العرب، فالعلم ملك شائع ومنبع مباح يغترف منه الناس جميعا وليس له حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسة الدولية. وإنما الذي يقدح في الأمة حقا أن تغمض عيونها، وتسد آذانها عما حولها من نظريات وأفكار، أو أن يدفعها التعصب الأعمى أن تنسب لنفسها ما ليس لها، وتعزو إليها خلق ما لم تخلق، وابتداع ما لم تبتدع. وانطلاقا من هذا الفهم القائم على وحدة الثقافة الانسانية وشيوعها وعلى ضرورة الاتصال بالأمم الاخرى، شارك الرواد من المقارنين العرب في مد جسور الاتصال مع الثقافات الاخرى، خاصة الاوربية منها. لقد أتاح الاتصال المبكر بالثقافة الاوربية عن طريق البعثات العلمية والحروب الاستعمارية، الاطلاع على نمط جديد من الحياة الثقافية استوجب نظرة متفحصة مزدوجة على الذات والآخر.

ويحدد الدكتور محمد غنيمي هلال تاريخ ولادة الدراسات الأدبية المقارنة، بغزوة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨، ولكن الدرس المقارن الحقيقي تطور في الربع الثاني من هذا القرن. فيقول: «إذا تتبعنا محاولات نشأة الادب المقارن عندنا في الربع الثاني من هذا القرن وجدنا أن نشأته لم تكن نتيجة لحركة فكرية واتجاهات فلسفية، ومنحى علمي، ومنهج نقدي عميق» (٥).

ونلاحظ هنا أن الدكتور هلال حدد ولادة الادب المقارن في الوطن العربي في الربع الثاني من القرن العشرين، ولم تكن الدراسات المقارنة في هذه الحقبة من الادب المقارن في شيء لأن اصحابها قد أسأوا فهم الادب المقارن ونفروا منه وشككوا في جدواه. ويربط الدكتور هلال ولادة الدراسات العربية المقارنة بالبحث الاكاديمي في الجامعات المصرية التي أوفدت عددا من الباحثين إلى أوربة عامة وإلى فرنسا خاصة للتخصص في هذا المجال. والدكتور هلال نفسه كان أحد أولئك الذين أوفدوا إلى فرنسا وتلمذ على يدي أحد أشهر المقارنين الفرنسيين وهو

فرانسوا غويار.

والحقيقة إن الدراسات المقارنة في الوطن العربي بدأت قبل هذا التاريخ، ومن هذه الدراسات دراسة الناقد السوري قسطاكي الحمصي (١٨٥٨ - ١٩٤١)، «منهل الورد في علم الانتقاد». ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء في تسعمئة صفحة، وبدأت طباعته في مصر سنة ١٩٠٧، وانتهت عام ١٩٣٥.

والمهم بالنسبة لبحثنا هو الجزء الثالث من هذا الكتاب، الذي قسمه صاحبه إلى ثمانية عشر بابا، وخص الباب الأخير بالموازنة بين الألعاب الإلهية (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالي دانتي ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

وتعد دراسة الحمصي من الدراسات المقارنة التطبيقية الرائدة ليس في سورية فحسب بل في الوطن العربي على رأي الدكتور حسام الخطيب في كتابه «الادب المقارن»، ج ١، ص ١٣١. والمهم في هذه الدراسة هو إقامة المقارنة بين هذين العاملين على أساس تأثيرات رسالة الغفران في الكوميديا الإلهية. وقد عد الناقد قسطاكي الحمصي الشاعر الإيطالي دانتي سارقا لفكرة الرحلة الخيالية من رسالة الغفران، ولهذا لا يعد دانتي مبدعا وإنما نقل ما وجدته في رسالة الغفران، وتصرف في بعض المسروقات تصرفا بعيدا وفي بعضه الآخر، غير الاسماء والأماكن. ويؤكد قسطاكي الحمصي على أن الإشارات التي وردت حول علوم الهندسة والتاريخ واللاهوت وآيات التوراة والانجيل جاء ليستر السرقة عن النقاد. ثم ينتقل الباحث إلى المقارنة بين العاملين ويعدد المشاهد المتشابهة والتي تبرهن على اطلاع دانتي على رسالة الغفران حسب رأيه.

ونحن إذ نورد كتاب قسطاكي الحمصي لأهميته التاريخية في مجال الدراسات الأدبية المقارنة، فإننا نعارضه في ما ذهب إليه من تأثر دانتي برسالة الغفران، وفي اطلاعه عليها قبل كتابته للكوميديا الإلهية. ونظن أن قسطاكي الحمصي أخذ ماقاله المستشرق الأسباني أسين بلاسيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤) في المجمع الملكي الأسباني في جلسة ١٩١٩/٢٦ حول «الاصول الإسلامية والكوميديا الإلهية».

فإذا عرفنا أن الحمصي قد نشر مقالته الأولى في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٢٧، ثم نشر الجزء الثالث من كتابه والذي هو موضوع حديثنا سنة ١٩٣٥، فإننا ندرك علاقته بالباحث الأسباني. وكان الدافع وراء تبني أفكار بلاسيوس هو إظهار مال للعرب من أثر في الحضارة والثقافة الغربيين.

فيقول: «ليس قصدنا في هذه الموازنة الحط من قدر دانتي ببيان سرقة الموضوع من شعر المعري، فقد سرق شعراؤنا وغيرهم قبل دانتي وبعده، وسيسرقون إلى يوم الدين... ولكن لنعلم نفرا يجهلون مدى أداب لغتنا ويكفرون بنوابغنا» (٦).

والمجال هنا ليس للحديث عن مدى تأثر دانتي برسالة الغفران ولكن ينبغي الانتباه إلى أن

تأثر الشاعر الايطالي برسالة الغفران لايعلي من قدر الأدب العربي، كما لا يقلل من قيمته عدم تأثره بها (٧).

ويظهر هنا أن دراسة الحمصي ابتعدت عن المنهج العلمي، وقفزت إلى إطلاق أحكام عامة كلية لاتستند إلى مقدمات سليمة، أو إلى أدلة وبيانات كافية تبرر هذه الأحكام. كما أن الناقد اكتفى بوجود تشابه في موضوع الرحلة الخيالية إلى العالم الآخر ليبرر تأثير رسالة الغفران في الكوميديا الإلهية دون أن يقدم الدليل القاطع على ذلك. قد يكون دانتي قد تأثر بقصة المعراج التي ترجمت إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٦٣ هـ، ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللاتينية. ومن الممكن أن يكون دانتي قد اطلع على هذه الترجمة، وإن كان هذا لا يكفي للجزم بتأثره بها، ولكنها فرضية قابلة للنقاش أكثر من تأثير رسالة الغفران. وعلى الرغم من ذلك، يبقى الناقد قسطاكي الحمصي من رواد الدراسات التطبيقية في الأدب المقارن في سورية وفي الوطن العربي وكيفيه ذلك فخرا. وإذا كان قسطاكي الحمصي من رواد الدراسات التطبيقية في الأدب المقارن في الوطن العربي، فإنه لم يشر، في دراسته، إلى مفهوم الأدب المقارن ولم يستخدم هذا المصطلح. لقد تناولت دراسته نقاط التشابه بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية، دون الاعتماد على نظرية الأدب المقارن التي تهتم بدراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية مع غيره من الآداب خارج حدود اللغة القومية التي كتب بها. أما أول من استخدم مصطلح الأدب المقارن في الوطن العربي فهو خليل هنداي (٨).

والحقيقة إن الدكتور حسام فيعيد الريادة في هذا المجال إلى الأديب السوري خليل هنداي (٩) فيقول: «خلافا لكل مانشر سابقا في هذا الموضوع، يتبين من مراجعة الدوريات العربية ذات الاتجاه الأدبي منذ أوائل القرن العشرين إلى منتصفه أن أول استعمال محدد لمصطلح الأدب المقارن ظهر بقلم خليل هنداي (حلب سورية) على صفحات مجلة الرسالة المصرية بتاريخ «الرسالة» عام ١٩٣٦.

أما الدكتور حسام فيعيد الريادة في هذا المجال إلى الأديب السوري خليل هنداي (٩) فيقول: «خلافا لكل مانشر سابقا في هذا الموضوع، يتبين من مراجعة الدوريات العربية ذات الاتجاه الأدبي منذ أوائل القرن العشرين إلى منتصفه أن أول استعمال محدد لمصطلح الأدب المقارن ظهر بقلم خليل هنداي (حلب سورية) على صفحات مجلة الرسالة المصرية بتاريخ ١٩٣٦/٦/٨ (١٠).

وكان عنوان المقال هو «اشتغال العرب بالأدب المقارن» (١١)

ويبدو من خلال المقالات التي نشرها خليل هنداي على صفحات مجلة الرسالة القاهرية، أن الكاتب كان واعيا لطبيعة مصطلح الأدب المقارن ومعناه لأنه يميزه عن الموازنات التي كانت تقوم بين شاعرين أو كاتبين عربيين كما فعل الأمدي في «الموازنة» لابل إنه يتجاوز المفهوم الفرنسي القائم على مبدأ التأثير والتأثير، ويتحدث عن نوع من الأدب العالمي الذي لا يعرف الحدود، ويحمل رسالة إنسانية تسمو فوق التعصب الفكري والنظرة الضيقة.

«ولكن الأدب - كما يبدو له - سلطان قاهر، يرمي بالحواجز التي تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم في عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء لأنه أدب... وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم... وربطت بين المفكرين ربطاً لا يقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية، وإنما يقوم على رفع الفكر وإعلاء كلمة الفكر» (١٢)...

وهكذا نرى أن خليل هندأوي يبشر بالرسالة الانسانية للأدب المقارن الذي يعمل على تهديم الحدود المصطنعة بين ثقافات شعوب الأرض. إنَّ روح الكاتب الانسانية جعلته يستشرف آفاق المستقبل في دراسة الآداب المختلفة، ويتعد عن التعصب القومي الذي يحد الرؤيا، ويسيء إلى الفكر. إن الأدب عطاء وإبداع، فكيف يمكن حصره في زاوية ضيقة تحجب عنه أشعة الشمس؟

هذه النظرة الانسانية الشمولية جعلته ينطلق في الأدب العربي إلى قضاء رجب يقع على حدود الآداب العالمية ليستمد منها وتستمد منه، فيقول: إن دراستنا اليوم للأدب الأجنبي أكثر ضرورة منها بالأمس بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب، وأصبح لا يليق بنا أن نترك الأدب العربي محصوراً في عزلته بحجة صيانتة ووقايته. ومما الذي يُخشى عليه؟ وإنما صيانتة ووقايته في تعريضه للهواء والنور لا في حجبهما عنه وفي تقريبه من الآداب العالمية» (١٣).

مأحوج الأدب المقارن إلى هذا الفكر الذي يسمو إلى أفق إنساني لا تشوبه شائبة ولا تحده حدود، ولا يخضع لاعتبارات أنية مؤقتة تفصل الانسان عن أخيه الانسان.

تعد مقالة خليل هندأوي رداً على أولئك الذين يريدون توظيف الادب المقارن لاغراض شخصية او قومية ضيقة. بعد قسطاكي الحمصي وخليل هندأوي شهدت الساحة السورية غياباً للدراسات الأدبية المقارنة، على الرغم من النجاحات التي بدأت تحققها على امتداد الوطن العربي خاصة في القاهرة وبيروت وبغداد، بعد عودة عدد من الموفدين إلى الجامعات الاوربية الذين درسوا الادب المقارن وتخصصوا فيه. ومن هؤلاء الدكتور محمد غنيمي هلال الذي تتلمذ على يدي المقارن الفرنسي الشهير فرانسوا غويار.

وكان لكتبه في حقل الادب المقارن تأثير كبير على الدراسات المقارنة في الوطن العربي. وبقي الجمود مسيطراً على الساحة السورية، ماعدا بعض المقالات، حتى عام ١٩٧١ حيث أدخل مقرر الأدب المقارن إلى قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، وقام بتدريس هذا المقرر الدكتور حسام الخطيب الذي أسهم بصورة كبيرة في نشر هذا الفرع المعرفي في سورية، من خلال التدريس والتأليف. فظهر له أول كتاب يحمل عنواناً من صلب الادب المقارن «سبل المؤثرات الاجنبية اشكالها في القصة السورية: دراسة تطبيقية في الأدب المقارن» (١٤).

وقد وجد هذا الكتاب اهتماماً من الباحثين لأنه شكل قفزة في تاريخ تطور الدراسات الأدبية المقارنة في سورية، كما أن المعلومات المهمة الموجودة في هذا الكتاب أسهمت في تنبيه الدارسين

إلى العلاقة بين الأدب العربي في سورية وبين الآداب الأوروبية، هذه العلاقة التي أنتجت اجناسا ادبية جديدة لم تكن موجودة في الادب العربي القديم مثل المسرحية والقصة والرواية. ويحمل عنوان الكتاب دلالة مهمة إذ يشير إلى منهج الكاتب في تبني المفهوم الفرنسي الذي كان مسيطراً ليس في سورية فحسب ولكن في الوطن العربي، وخاصة أن الرواد الأوائل من المقارنين العرب تتلمذوا في الجامعات الفرنسية.

ويشير الدكتور عبد النبي اصطيف في مقالته التي تقدمت الطبعة الخامسة من الكتاب عام ١٩٩١ إلى هذه المسألة، ويؤكد على أن مسألة التأثر والتأثير هي مسوغ الدراسة المقارنة. وعلى الرغم من أهمية عقد السبعينيات بالنسبة للادب المقارن في سورية، بعد إدخاله إلى الجامعة وظهور كتاب الدكتور حسام الخطيب فإنه لم يشهد انطلاقة حقيقية إلا في عقد الثمانينيات.

وكان الأمر مقتصرًا قبل عام ١٩٨٠، بالإضافة إلى الكتاب سابق الذكر، على بعض المقالات في مجلة المعرفة السورية، حيث نشر الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧٦ عرضاً مفصلاً عن مشاركته في المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للادب المقارن الذي عقد في بودابست في العام نفسه، كما نشر ثلاث مقالات في المجلة نفسها عام ١٩٧٩ حول «الأدب المقارن بين التزمّت المنهجي والانفتاح الانساني» بالإضافة إلى مقالات الدكتور حسام الخطيب خصصت مجلة المعرفة بعض الأعداد للدراسات المقارنة من الناحيتين النظرية والتطبيقية. واشترك في كتابة هذه المقالات مجموعة من الباحثين المشتغلين في مجال الأدب المقارن، ومن هؤلاء الدكتور جمال شحيد الذي نشر عام ١٩٧٧ مقالا بعنوان «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة» (١٥).

وخصص العددان ١٩١ - ١٩٢ لعام ١٩٧٨ بصورة كاملة للدراسات الأدبية المقارنة خاصة التطبيقية منها (١٦). ويأتي هذان العددان في حقبة ازداد فيها الوعي بضرورة الاستفادة من مناهج الأدب المقارن من أجل معرفة موقعنا بالنسبة للآداب العالمية. ولهذا قامت وزارة الثقافة بطباعة كتابين مترجمين. الأول ترجمة عن الانكليزية عبد الكريم محفوظ عام ١٩٨٠، وهو من تأليف هاري ليفن بعنوان «انكسارات، مقالات في الأدب المقارن». وأكثر مايركز هذا الكتاب على الدراسات التطبيقية المقارنة في الآداب الغربية. ولايبعد الكتاب الثاني عن الكتاب الأول، وهو من تأليف ايغريم كارانفيلوف، وعنوانه «ابطال وطباع، مقالات في النقد والنقد المقارن»، قام بترجمته ميخائيل عيد عن البلغارية وصدر عام ١٩٨٢. وفي هذا الاطار يمكن الإشارة إلى كتاب كاترينا مومسن «غوته وألف ليلة وليلة». الذي قام بترجمته الدكتور أحمد حمو وأصدرته وزارة التعليم العالي عام ١٩٨٠. ويظهر هذا الكتاب أثر ألف ليلة وليلة في شاعر المانية الكبير غوته الذي تربى منذ نعومة اظفاره على سماع حكايات أعظم قاصة في التاريخ «شهرزاد» وهذا دليل على أن التأثير لايمكن أن يكون في اتجاه واحد. على الرغم من عظمة غوته ومكانته كواحد من القمم الكبرى في الأدب الغربي فإنه اعترف بفضل الأدب

العربي عليه بالإضافة إلى القرآن الكريم الذي كان له أكبر الأثر في ظهور بعض أعمال الشاعر إلى الوجود (١٧).

إلى جانب هذه الكتب المترجمة ظهر في دمشق لأول مرة كتاب يحمل عنوان «الأدب المقارن» للدكتور حسام الخطيب. وصدر هذا الكتاب عام ١٩٨١، في جزأين عن جامعة دمشق. الجزء الأول مخصص للحديث عن النظرية والمنهج، إذ يعتمد المؤلف إلى التعريف بالمفاهيم الرئيسية للأدب المقارن مع طرح العضلات التي تواجهه. ولا ينسى الحديث عن الأدب المقارن عند العرب منذ بداية عصر النهضة حتى تاريخ صدور هذا الكتاب. أما الجزء الثاني فيحتوي على كل الموضوعات التي وردت في كتابه «سبل المؤثرات الأجنبية في القصة السورية» فيقف أولاً عند علاقة الأدب العربي الحديث بالأدب الأوروبية خاصة بعد الاتصالات الكثيرة التي قامت بين هذه الآداب بفعل عوامل عديدة. لينتقل بعد ذلك إلى القصة السورية والمؤثرات الأجنبية التي أسهمت بصورة مباشرة في ولادتها. أما الفصول الأخيرة من الجزء الثاني فقد خصصت للدراسات التطبيقية حيث يقف المؤلف خاصة عند التأثيرات الوجودية في القصة والرواية في سورية.

ومعروف الآن فائدة هذه الطريقة من التأليف التي تساعد على فهم الجانب النظري، فإذا تم للقارئ ذلك انتقل به المؤلف إلى الجانب التطبيقي الذي يثبت المعلومات النظرية ويوضحها.

مما لا شك فيه أن هذا الكتاب جاء تنويعاً لمرحلة كاملة من البحث المقارن في سورية وأسهم في إثراء الثقافة المقارنة وتنشيط الدراسات النقدية إزاء مشكلات نوعية متخصصة في ميادين الأدب المقارن وظهر في هذه المرحلة كتاب الدكتور محمد ألتونجي «دراسات في الأدب المقارن» وهو من منشورات اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٨٢. وكما جرت عليه العادة في الكتب السابقة، قرن المؤلف النظرية بالتطبيق، ولكنه يعتمد اعتماداً كبيراً على كثير من الموضوعات، وعدد من الكتب المختصة في الأدب المقارن. وهذا ما يعترف به المؤلف نفسه. إن هذه الكتب التي ظهرت في السنوات الأولى من مرحلة الثمانينيات تعد مؤشراً على الاهتمام المتزايد في الظاهرة المقارنة، توجت بالمؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن الذي عقد في رحاب كلية الآداب بدعوة من جامعة دمشق بين ٦-٩/٧/١٩٨٦ (١٨).

وشارك في المؤتمر باحثون من عدد من الأقطار العربية بالإضافة إلى بعض الباحثين العالميين. وكان الموضوع المركزي لهذا المؤتمر هو مجالات الأدب المقارن عند العرب نظرياً وتطبيقاً، وانقسم إلى ثلاثة محاور. المحور الأول تناول الأدب العربي المقارن، والمحور الثاني دار حول علاقة الأدب العربي المقارن بالعالم، أما المحور الثالث فخصص للدراسات التطبيقية. وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يقال عن هذا المؤتمر، فإنه يمثل ظاهرة متطورة على طريق ترسيخ دعائم الدراسات الأدبية المقارنة في سورية وفي الوطن العربي. لأنه أسهم في

إثارة قضية الأدب المقارن ونشر الوعي المقارني كما يقول الدكتور حسام الخطيب رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر «إن قضية الأدب المقارن، إذ تبدأ بطرح نفسها على جمهوره المثقفين والقراء إلى جانب المتخصصين، إنما تبعث في النفس أملاً وتفتح أبواباً ومجالات من البحث كفيلة بأن ترفد الأدب العربي المعاصر بدم جديد، وأن تسهم في تسهيل طريق تحقيق طموحه القومي العصري وتطلعه الانساني الشامل» (١٩).

وعقب المؤتمر شهدت المجلات السورية حركة نشطة في نشر المقالات الأدبية المقارنة، وخصصت أعداد كاملة من مجلات المعرفة والموقف الأدبي والآداب الأجنبية لنشر المقالات التي ألفت في المؤتمر والتي ألفت أضواء جديدة على مواضيع مظلمة، وساعدت على رؤية الأدب العربي من خلال المقارنة والمقابلة بالآداب الأجنبية. فنشرت مجلة المعرفة في عددها /٢٩٥/ الصادرة عام ١٩٨٦ مقالات لكتاب سورين وعرب، ومن هذه المقالات «حول الأدب العربي وامتحان العالمية» للدكتور حسام الخطيب، و«أسطورة أورفيوس بين الآداب الغربية والشعر العربي المعاصر» للدكتور علي الشرع من جامعة اليرموك في الأردن، و«الموشح الاندلسي بين التأثير والتأثير» للدكتور رضوان الداية، و«في نظرية الأدب المقارن» للدكتور فؤاد مرعي. أما مجلة الموقف الأدبي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق فقد تناولت في عددها /١٨٦/ عام ١٩٨٦، ملف الأدب العربي في علاقاته مع الآداب الأخرى وافتتح العدد الدكتور عبد الله أبو هيف في «قصة الأدب العربي المقارن».

تلاه رأي الدكتور حسام الخطيب في المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن. بعد ذلك حاولت المجلة أن تقدم دراسات تطبيقية قائمة على النماذج الأدبية المقارنة التي تطرح كثيراً من الأسئلة المثيرة للاهتمام. فقدم الدكتور جمال شحيد بحثه حول «رواية عصر التنوير الفرنسية والحضارة العربية»، أما الدكتور عادل عبد الله فتحدث عن «ألف ليلة وليلة وفقن البرلسك الانكليزي».

وبقيت الدكتورة بثينة شعبان في إطار الادب الانكليزي لتطرح قضية مهمة جداً هي «الأدب النسائي العربي والأدب النسائي الانكليزي».

وكما فعلت مجلتا الموقف الأدبي والمعرفة، فعلت مجلة الآداب الأجنبية في عددها المزدوج /٥٠ - ٥١/ الصادر عام ١٩٨٧. ومن المقالات التي قدمها الباحثون السوريون مقال الدكتور عبد النبي اصطياف بعنوان «دعوة إلى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي الحديث ونقده».

وقدم الدكتور سليمان محمد أحمد بحثاً بعنوان «هاردي والعقاد». على أن المجال لا يتسع هنا لاستعراض كل البحوث التي نشرت على صفحات هذه المجلات، وإبداء الرأي فيها، ولكنها تثبت الاهتمام المتزايد الذي أولاه الباحثون السوريون والعرب لهذا الفرع المعرفي المفيد في فهم النصوص الأدبية.

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ترجمة عارف حديفه لكتاب أس.أس. براور «الدراسات الأدبية المقارنة - مدخل» الصادر في دمشق عام ١٩٨٦ عن وزارة الثقافة.

خلال السنوات القليلة التي تلت المؤتمر عاد بعض الموفدين الدارسين في الجامعات الغربية في مجال الأدب المقارن، إلى سورية وعملوا بالتدريس في الجامعات السورية الأربع. مما لاشك فيه أن سياسة الإيفاد التي اتبعتها الجامعات السورية، أسهمت في توسيع أفق الدراسات المقارنة بسبب تعدد الجامعات وتنوعها، وامتلاك الموفدين للغات مختلفة تساعدهم على الاطلاع على وجهات النظر المتعددة والفنية. وهكذا نرى التنوع في التأليف، كما يظهر من كتاب الدكتور عبده عبود «الأدب المقارن»، الصادر عن جامعة البعث عام ١٩٩١، حيث استفاد الباحث من دراسته في المانية ومعرفته للغة الألمانية. ولهذا احتوى كتابه على موضوعات جديدة تتعلق باستقبال الرواية الألمانية في العالم العربي. كما أن توزيع الموضوعات على فصول الكتاب التسعة أسهم في إعطاء صورة شاملة للقارئ عن الأدب المقارن في المجالين النظري والتطبيقي، محاولاً في الوقت نفسه استخدام مفاهيم جديدة في دراساته التطبيقية فيقول: «وقد انطلقنا في هذا الكتاب من منحى نظري رئيسي شكل منعطفاً حاداً في نظرية الأدب وكان له أكبر الأثر على تطور الأدب المقارن وبحوثه ألا وهو نظرية الاستقبال الأدبي، دون أن يقودنا ذلك إلى إغفال الاتجاهات والتيارات النظرية الأخرى، أو تجاهلها» (٢٠).

ويسجل لمؤلف هذا الكتاب مشاركته النشطة في التعريف بالأدب المقارن عن طريق التأليف والترجمة وكتابة المقالات وإلقاء المحاضرات، مما يبشر بالحفاظ على الحماس الذي لا بد منه من أجل ترسيخ دعائم هذا الفرع المعرفي. وإذا كنا لانستطيع الإشارة إلى كل ذلك، فلإنه لا بد من التذكير بكتابه «الرواية الألمانية الحديثة - دراسة استقبالية مقارنة» الصادر عن وزارة الثقافة في دمشق عام ١٩٩٣ ضمن سلسلة «دراسات نقدية عربية».

بالإضافة إلى الطريقة العلمية والأكاديمية التي يتبعها الكاتب في رصد الظواهر الأدبية، فإنه يقدم أيضاً طريقة جديدة في التعامل مع الظاهرة الأدبية من خلال تتبع سيرورتها من بلد المنشأ حتى تلقيها من قبل القارئ العربي.

وقبل صدور هذا الكتاب بنحو عام، صدر كتاب الدكتور حسام الخطيب «آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً» عن دار الفكر في سورية ولبنان عام ١٩٩٢. وعلى الرغم من التشابه بين هذا الكتاب والكتاب الذي صدر عن جامعة دمشق في جزأين عام ١٩٨١، بعنوان الأدب المقارن، فإن الدكتور حسام الخطيب يحاول أن يقدم هنا نظرة متكاملة تعتمد على خبرته في مجالات التأليف والتدريس وحضور المؤتمرات العربية والدولية، مستفيداً من الوثائق التي حصل عليها في إعادة تصحيح بعض الحقائق، خاصة المتعلقة منها بتاريخ الدراسات المقارنة في الوطن العربي.

قبل أن أختتم بحثي هذا أريد أن أشير إلى أن كاتب هذه السطور قام بجهد متواضع في هذا

الإطار.

وكان الكتاب الأول «إشكالية الموت في الأدب» الذي صدر في دمشق عن دار معد عام ١٩٩٣ محاولة جادة لرصد موضوع إشكالية الموت في أدب الكاتب السوري جورج سالم، وعلاقة ذلك بفكر غابرييل مارسيل وألبير كامو.

والكتاب الثاني بعنوان «الحرية الوجودية بين الفكر والواقع، دراسة في الأدب المقارن»، ونشر في دمشق عام ١٩٩٤، وإذا كان الكتاب الأول قد كرس للجانب التطبيقي، فإن الكتاب الثاني قد بدأ بفصل عن تاريخ الأدب المقارن ومدارسه في حين أن الفصلين الثاني والثالث قد خصصا للحديث عن الحرية عند بعض الكتاب السوريين والفرنسيين الوجوديين لأن الحرية هي جوهر الانسان بالنسبة إلى الفكر الوجودي لا بل هي الوجود الانساني ذاته.

بالإضافة إلى ذلك قمت بنشر بعض المقالات في مجلات سورية وعربية (٢١). وفي هذا المجال لم يتوقف نشاط الباحثين السوريين كما يتبدى من خلال الأبحاث المختلفة التي تنشر في مجلات سورية وعربية.

في نهاية هذا العرض السريع، يحق لنا أن نتساءل ماذا قدمت كل هذه الدراسات من فائدة للادب في سورية، وما هي آفاق تطورها؟ على الرغم من الجهد الواضح الذي بذله الباحثون السوريون، فإن النتائج لم تكن في مستوى الطموح. ولو ألقينا نظرة سريعة على عدد الكتب المؤلفة أو المترجمة لوجدناها لا تتجاوز عدد أصابع اليدين.

إن نشأة الأدب المقارن في سورية قد تأخر عن نظيره في البلاد الغربية بنحو قرن من الزمن. وهذه الولادة مرتبطة باتصال المقارنين السوريين الاوائل بالثقافة الغربية واستفادتهم من مناهجها الحديثة. ولكن هذه الاستفادة انحصرت في الجانب التطبيقي لا في الجانب النظري وكما يعاني الادب المقارن من أزمة في البلدان العربية كذلك الامر في سورية، ولم تستطع الجهود الكبيرة في نقله من مجرد مقرر هامشي في الجامعات يهتم عدداً محدوداً من المتخصصين إلى فرع معرفي من بين فروع المعرفة المختلفة. وإذا كان المستقبل يبشر بالخير نتيجة عدد من العوامل التي تشجع على إطلاق مثل هذا الحكم، فإننا يجب أن نتعهد هذه الانطلاقة المبشرة بالرعاية اللازمة عن طريق رسم خطط مستقبلية تكفل نشر الثقافة المقارنة وتشجع المقارنين السوريين وترعاها.

كما أنه يجب إعادة النظر في المقررات الجامعية وطرق التدريس، إن ذلك يعد اللبنة الاساسية في تطوير البحث المقارن. وهذا يتطلب التواصل المستمر مع المقارنين العرب من جهة ومع المقارنين العالميين من جهة أخرى عن طريق عقد اللقاءات والندوات التي تشجع البحث وترعاها. ويبقى الاساس في كل عملية تطوير الإنسان نفسه، فإذا توفرت النية والامكانية أمكن للبحث المقارن في سورية أن يحقق انطلاقة مهمة. أمنية صعبة التحقيق لكنها ليست مستحيلة.

الحواشي :

- ١- أحمد أبو زيد، «الأدب المقارن»، عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث (١٩٨٠) ص٣.
- ٢- بول فان تينغ، الأدب المقارن ٧ القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٦، ص٢٠.
- ٣ P.Brunel, Claude Pichois, A.M,Rousseau, Qu est-ce que la litterature comparée, Paris, Armand Colin, 1983/ P.15/.
- ٤- أحمد أمين، ضحى الاسلام، ط٢، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، ص١٣٣.
- ٥- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط٣، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٧، ص٨٥.
- ٦- قسطنطين الحمصي، منهل الورد في علم الانتقاد، ج٣، حلب، مطبعة العصر الجديد ١٩٣٥، ص١٩٧.
- ٧- للمزيد من المعلومات، راجع كتاب، الياس سعد غالي، رسالة الغفران والكوميديا الالهية دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨.
- ٨- حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، دار الفكر المعاصر في لبنان، ودار الفكر في سورية، ١٩٩٢، ص١٥٤.
- ٩- ولد خليل هندراوي في صيدا في جنوب لبنان عام ١٩٠٦، انتقل إلى سورية عام ١٩٢٨، وعمل مدرسا في مدارس دير الزور وحلب إلى أن عين رئيسا للمكتب الفرعي لاتحاد الكتاب العرب في حلب حتى وفاته سنة ١٩٧٦.
- ١٠- حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، ١٩٩٢، ص١٥٣-١٥٤.
- ١١- ظهر المقال على صفحات مجلة الرسالة القاهرية عام ١٩٣٦، الاعداد: ١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٥٦.

- ١٢ - خليل هندراوي. «اشتغال العرب بالادب المقارن!»، الرسالة، المجلد الأول، العدد ١٥٣، ١٩٣٦/٦/٨ د ص ١٩٣٨.
- ١٣ - المصدر السابق، ص ٩٣٩.
- ١٤ - صدرت الطبعة الاولى من الكتاب في القاهرة عام ١٩٧٣ عن معهد البحوث والدراسات العربية، ثم أعيد طبعه في دمشق عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٥ (اتحاد الكتاب العرب). وأخيراً ظهرت طبعة منقحة ومعدلة بدمشق عام ١٩٩١ تتقدمها مقالة الدكتور عبد النبي اصطيف «سبل المؤثرات من منظور مقارني».
- ١٥ - جمال شحيد، «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة»، مجلة المعرفة، العدد ١٨٢، ١٩٧٧ ص ٧٢-٥٩.
- ١٦ - خصص العدد المزدوج ١٩١ - ١٩٢، عام ١٩٧٨، بصورة كاملة للدراسات المقارنة ولذلك استحال علينا ذكر كل الموضوعات، وننصح بالعودة إلى هذا العدد من مجلة المعرفة.
- ١٧ - من المفيد العودة إلى كتاب، كاترينا مومزن، غوته والعالم العربي، ترجمة عدنان عباس علي الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٩٤، عام ١٩٩٥.
- ١٨ - لمزيد من المعلومات، راجع، حسام الخطيب، «حول المؤتمر الثاني للرابطة العربية للادب المقارن»، الموقف الادبي، العدد ١٨٦، ١٩٨٦، ص ٧ - ١٤.
- ١٩ - المصدر السابق، ص ١٤.
- ٢٠ - عبده عبود، الأدب المقارن، حمص، جامعة البعث، ١٩٩١ - ١٩٩٢.
- ٢١ - من هذه المقالات، «في الأدب المقارن» مجلة علامات، السعودية، جدة، المجلد الرابع، الجزء الرابع عشر، (١٩٩٤)، ص ٢٠١.



المصادر والمراجع في اللغة العربية :

- أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط ٢، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.
- براور، اس. اس الدراسات الأدبية المقارنة. ترجمة عارف حديفة. دمشق وزارة الثقافة ١٩٨٦
- التونسي، محمد، قسطاكي الحمصي شاعرا وناقدا وفيلسوبا. بيروت: دار الانوار، ١٩٦٩
- دراسات في الأدب المقارن، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٢.
- تبيغم، بول فان. الأدب المقارن. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٦.
- الحمصي، قسطاكي. منهل الورد في علم الانتقاد، ج ٣ حلب: مطبعة العصر الجديدة، ١٩٣٥.
- الخطيب، حسام. سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية، ط ٥. دمشق: مكتبة الادب القصصي في سورية، ١٩٩١.
- الأدب المقارن، ج ١-٢، دمشق: دار الانشاء، ١٩٨٢
- آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، دار الفكر في سورية ولبنان، ١٩٩٢.
- عبود، عبده. الأدب المقارن. حمص: منشورات جامعة البعث، ١٩٩١.
- الرواية الالمانية الحديثة، دراسة استقبالية مقارنة. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٣.
- علوش، سعيد. مدارس الأدب المقارن، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧.
- غالي، الياس سعد. رسالة الغفران والكوميديا الالهية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨.
- ليفين، هاري، انكسارات، مقالات في الأدب المقارن، ترجمة عبد الكريم محفوظ. دمشق:

وزارة الثقافة، ١٩٨٠ .

- ويليك، رينيه. مفاهيم نقدية. ترجمة محمد عصفور، الكويت، عالم المعرفة العدد ١١٠/١٩٨٧ .

- هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، ط ٣ . القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٧ .

المصادر والمراجع في اللغة الفرنسية

- Brunel, P.Pichois, Claude, Roussau, A.M.Qu est-ce que la littérature comparée. Paris: Armand Colin, 1983

- Guyard, Marius- Francois. La littérature comparée. Paris: P.U.F. 1969.

الدوريات العربية

- الآداب الأجنبية، دمشق، العدد المزدوج، ٥٠ - ٥١، ١٩٨٧ .

- الرسالة، القاهرة، المجلد الأول، الأعداد، ١٥٣ - ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٩٣٦ .

- عالم الفكر، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث، ١٩٨٠ .

- علامات، السعودية، المجلد الرابع، الجزء الرابع، ١٩٩٤ .

- المعرفة، دمشق، الأعداد ١٨٢، ١٩٧٧، ١٩١ - ١٩٢، ١٩٧٨، ٢٩٥، ١٩٨٦ .

- الموقف الأدبي، العدد ١٨٦، ١٩٨٦ .

*

*

*

ملخص البحث

يرتبط مصطلح الأدب المقارن بالنصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد محاضرات آبل فيلمان التي ألقاها صيف عام ١٨٢٧ ونشر قسم منها عام ١٨٢٨ و١٨٢٩. كسب الأدب المقارن بعد «فيلمان» مناطق نفوذ جديدة، أو بالأحرى كسب شعبية في فرنسا وفي كل مكان من العالم، بما في ذلك سورية حيث نشر قسطنطين الحمصي دراسته «منهل الورد في علم الانتقاد» عام ١٩٣٥. في السنة التالية، كتب خليل هنداوي عدة مقالات في مجلة الرسالة حيث استخدم، للمرة الأولى، مصطلح الادب المقارن. في جامعة دمشق بدأ الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧١، بإعطاء محاضرات في الأدب المقارن. وخلال هذه السنوات، بدأ الأدب المقارن يعرف كعلم مستقل في سورية.